مجلة المعجمية - تونس

ع 5-6

1990

مـــن الألـفـاظ الــى المـعـانـي والـعـكـس

بحث : الدكتور الاستاذ دانيال ريغ

ليس غرض المعجمي ان يخلق عوالم خيالية وأشخاصا ورقية عن طريق الكلمات كما يفعل الروائي، بل ان يجمع تلك الكلمات، نفس الكلمات، ويخضعها لنظام تابع لقواعد تختلف عن تلك التي تعتمدها الرواية وإن كان بامكان مادّة المعجم هذه ان تشكل نوعا من الخطاب. . . فهي في الحقيقة ليْسَت جامدة متحجرة ويمكننا ان نحللها على مستويات عديدة:

هناك شكل هذه المادة، أي كيفية معالجتها: ترتيب ألفبائي، اشتقاقي مباشر أو معاكس (حسب اوائل الأصول أو أواخرها) ثم جعل الافعال أولا ومن بعدها الأسماء أو العكس، أو خلط هذه وتلك حسب درجة الاشتقاق.

هناك أيضا مستوى التفسير أو الشرح أي تعريف الكلمات أو تحديدها بالمترادفات او الأضداد أو الجمل إلى غير ذلك...

هناك ايضا مستوى المعاني بالاشارات الى حالتها اللغوية أوْ بدونها: حقيقية هي او مجازية، بائدة أو مستعملة، أدبية أو صحافية أو عَلمية، الى غير ذلك من الاشارات التي توفّرها المعاجم الحديثة للقراء.

هناك أخيرا مستوى رابع هو مستوى معنى المعنى اي معنى كل المواد التي أحصيتها في المستويات السابقة ونستطيع ان نعالج فيه ما يتعلق بالمؤلف: بيئته، ثقافته، شخصيته وأصالته الى غير ذلك من الحالات والظروف، خارجية كانت أو داخلية، التي من شأنها ان تؤثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة على العمل المعجمي.

هذا وقد يدخل أيُّ مستوى من المستويات التي وصفها مجال هذه الندوة لأنه يتعلق بمادة كل الانواع من المعاجم وبالخصوص المعاجم التاريخية للغات، وأريد هنا ان أكتفي بالحديث عن مستوى التفسير فقط نظرا الى موضوع هذه الندوة فأقدّم بعض الأفكار المتواضعة التي خطرت ببالي ولو أنّها ظهرت مفككة ومبعثرة انها يحكمها نظام ضمني بامكانه أن يكشف عن موقف واضح.

لقد نشأ منذ زمن نوع من اللّعِب، ميدانه اللغة وبصورة خاصة، كلمات اللغة. فنمت هذه اللعبة وانتشرت وتكاد لا تخلو منها جريدة ولا مجلة من الجرائد والمجلات المعاصرة حتى أخذت تصدر منشورات عديدة خاصة بها في كل لغات العالم. إنها تُلقِي ضوءا ساطعا على روحات الفكر الانساني وغدواته بين الكلمة ومعناها وهي معروفة باسم «الكلمات المتقاطعة». إنما ننظر إليها عادة نظرة اللاعب الذي يستهدف اكتشاف الكلمات، منطلقًا من التعريفات المقترحة ومحاولاً مطابقة الاولى على الثانية وننْسى ان لهذه اللعبة واضعا اخترع العلاقة بين هذا التعريف (المفتاح) وتلك الكلمة ولو أنّه لم يخترع طبعا لا الكلمة ولا المفتاح. إنه يختار بعض المفردات ويجعل منها سلاسل حروفية متقاطعة البعض منها عمودي والآخر أفقي. بعد ذلك يجتهد في إيجاد تعريف مناسب لكل من المفردات الموجودة في هذه الشبكة المؤلفة من سطور وأعمدة. أخيرا يمحو الكلمات ويُبقي بعض العلامات منها المعنوية ومنها الشكلية التي من شأنها ان تدل على الكلمات المخفيّة. من بين العلامات التعويضية هذه، على صعيد الشكل، هناك عدد الحروف التي تتكون منها الكلمة المعنية من جهة والحروف التي وجدها

الـلاعب أو التي كانت موجـودة من قبل، من جهة أخرى. أما على صعيد المعنى، فلدينا العلامات التعريفية التي أشرت اليها آنفا.

يمكننـا إذن ان نقـول إن اللاعب يبحث عن كلمة عن طريق التعريف المقترح بينها يكون واضع اللعبة قد بحث عن تعريف منطلقا من الكلمة الى مفهومها ومن المفهوم الى الكلمة فلدينا اذن الطريقان اللتان يسلكهما عمل المعجمي. فهو قائم إمّا من جهة الواضع للكلمات المتقـاطعـة أو من جهة اللاعب لها وقد يطبّق على الكلمات تعريفاتها كالأول فيدخـل مجال سيمازيولـوجيا (Sémasiologie) أو قد يطبّق على التعـريف الكلمات المنـاسبـة له كالثـاني فيدخـل مجال أونومازيولوجيا (Onomasiologie) . الـطريقـة الاولى هي التي يتبعها مؤلف المعاجم اللغـوية العـادية أمـا الثـانية فتؤدي الى تأليف معـاجم المـترادفـات والمتجانسات والمعاجم المخصّصة لكل فرع من فروع العلم والصناعة وكـذلـك الخـاصة بالاعراض الأدبية. قد يهتم بهذه الطريقة الاخيرة اللغـويون طبعا وعلماء البلاغة والكتّاب كما يهتم بها المتخصصون في العلوم الانسانية الذين يرغبون في دراسة مظاهر الثقافات والحضارات المختلفة.

أريد الآن ان أُلفت الانتبـاه الى بعض المشـاكـل التي يثـيرهـا التعريف (أو التحديد، أو الشرح، أو التفسير). بعدما ينظّم المعجمي الألفـاظ التي ينوي دراستها فيوضّح لكل واحد منها السياق التركيبي الذي قد تظهر فيه الكلمة ويحلّل معناها أو معانيها إلى وحدات معنوية بسيطة فيستـطيع وقتـذاك ان يُلقي ضوءًا على الحياة التـاريخية لهذه الوحدات اذا توفرت له من قبل المعلومات الكافية ليثبت وقت دخولها اللغة. هذا الجرد التركيبي والمعنوي، هو ما يطلق عليه اسم **التعريف** الذي قد يأخذ أشكالا متنوّعة.

قد يبدو التعريف كمبدإ من المبادىء القبلية التي يبنيها العقل الفلسفي او العلمي والتي يرتكز عليها في إنشاء مجموعة من المفاهيم وتسييرها. في نظام علمي كهذا تترابط التعريفات ترابطا وثيقا منطقيا

لأنها نشأت كنتائج لعمل استنتاجي مبرمج.

قد يبدو التعريف كقضيّة (proposition) تُخبر عن اتساع المفهوم وعن كثافته أعني بالاول مجموع الموضوعات التي يدل عليها المعنى وبالثاني جميع الصفات المشتركة بين هذه الموضوعات.

قد يبدو التعريف أيضا أقلّ علمية ودقة واكثر شُمولية وسعَة كما هو الحال في المعجم اللغوي لأن التعريف هنا لا تشترط وظيفته تناسق نظام استدلالي كما تتأسّس على البديهات السائدة في معجم المفاهيم العلمية أو الفلسفية. في المعجم اللغوي لا يخضع التعريف لضرورة علمية أو منطقية، إنما هو مقول يجد مبرر وجوده في الكلمة المعرفة نفسها. وفيما يلي سنرى عن كثب انواعا من هذا التعريف ومن الاخطار التي قد تكون للمعجمي بالمرصاد.

النوع الاول هو شرح مطول للكلمة - الأسَاس، قد يكون معناه هو معناها نفسه، وقد يكون أوسع أو أفقر منه إذ إن الكلمة كمدخل من مداخل المعجم، « شكل » شكل يتخذه المعنى ليعبر بواسطته الى الوجود اللغوي ويتحقق كوحدة كلامية. فممّا لا شك فيه ان موضوع التحليل المعجمي هو المعنى الذي لبس هذا الشكل في هذه الكلمة في وقت معيّن من احتياجات اللغة الثقافية لا الشكل بحدّ ذاته. وذلك واضح تمام الوضوح في اللغة العربية التي لم تتغيّر شكليا منذ وصلت الى الوجود اي منذ أكثر من خمسة عشر قرنا ولو انها تغيّرت معنويّا، تغيّرا بيّنا في كل الميادين التي تدل عليها. في ذلك يكمن الجواب او بعضه عن التساؤلات عن عدم اهتمام العرب بالمعاجم التاريخية، فأخذوا الجزء اي الشكل اي الكلمة شكلاً ومعنى. فاغتنت منذ نشأتها على أساس اتصالاتها العديدة بالحضارات والثقافات الأخرى طيلة تلك القرون الطويلة. ولدى المعجمي كل الشواهد التي يحتاج اليها في بحوثه عن تاريخ المعاني فلذلك اعتقد، بكل تواضع، ان اول مهمة من مهمات اللجنة الخاصة بتأليف معجم تاريخي للغة العربية هي التفكير في كل ما يتعلق بالمعنى: المعنى

اللغوي والمعنى السيميائي وبالوسائل المتوفرة لنا للوصول إليه وتحليله ومنها التعريف. لذلك أريد ان أكرّس دقائق لهذا النوع من المشاكل حتى ألقي بعض الأضواء على الأخطاء التي قد تسيء العمل المعجمي تاريخيا كان أو لا.

لنأخذ مثلا كلمة «ضَرْب» التي خصصتها للدلالة على معنى واحد من معانيها العديدة حتى يكون البرهان أوضح وأنفع، فوجدت في بعض المعاجم العربية المعاصرة هذا التعريف:

ضَرْب = نوع وشكل

ممّا نستطيع ان نلاحظه في هذا التعريف ان معنى «ضَرْب» هذا يتحلّل، حسب المعجمي الذي قام بالعمل التحريري، إلى وحدتين معنويَتين معطوفتين.

لِنفرض الآن أنّ القارىء يحتاج الى مزيد من المعلومات فيرجع الى كل من كلمتي الشرح فيجد ما يلي:

في باب نوع = صَنف

في باب شكل = صورة وهيئة

وإذا تابع بحثه في نفس المعجم وجد:

في باب صَنْف = نوع

وفي باب صورة = شكل

وفي باب هيئة = شكل وصورة

إنّ عملية التعريف التي نلحظها في هذا المثال هي شيء عادي في المعاجم اللغوية. انها عملية دورية بمعنى انها تدور على نفسها حتى تعرِّف الكلمة نفسها بنفسها في آخر المسار التعريفي.

هناك مثل آخر قد يكون فيه التعريف مكوّنا من جملة او جملتين مثلا:

دخل مكانا = صار داخله، ضدّ «خرج»

داخل من كل شيء = باطنه

خرج = برز، ضد « دخل »

بَرَزَ = خرج

تنغلق الحلقة التعريفية على ذاتها بعد مسار قد يطول أو يقصر وكل هذه الأنواع أو الأصناف او الضروب أو الصور من التعريف بالمترادفات والحمل والأضداد ناقصة من جهة وحرّة من جهة أخرى.

فهي ناقصة لأنها تبحث عن حقيقة معنى كلمة ما عن طريق كلمات اخرى هي أشكال لمعانٍ ليست بمعانٍ. وفي مرحلة ثانية تعرّف الاخيرة عن طريق الاولى. إن هذه التعريفات مؤلفة على أساس استناد الخطاب المعجمي إلى نفسه حتى يعود بالقارىء بواسطة آليات متنوعة، إلى مقولات قد انتجها من قبل ويحقّق بذلك وظيفته الاستنادية. ولكن هذه المقولات السابقة يُنتجها المتكلّمون الطبيعيون بصورة بديهيّة أي من دون ان يجتهدوا في تعريف كل الألفاظ المكوّنة لها. علاقاتهم الطبيعية باللغة مؤسّسة على الحدس لا على العقل. وهناك يكمن الفرق الرئيسي بين التعريفات اللغوية العادية والتعريفات العلمية. لا تُكوِّن الاولى كما رأيناه مجموعة من المفاهيم الثابتة المعدودة على غرار المبادىء الفلسفية والمنطقية المعرّفة قبليّا والمنتمية الى مجموعة متماسكة متناسقة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فتكون هذه التعاريف اللغوية حرّة. يعني ذلك أنها قد تختلف من معجم الى آخر وهذه الاختلافات عائدة الى ميزات المعجمي الثقافية والعقلية لا الى ضغوط علمية محدّدة.

ولكن هناك نوع آخر من التعريفات التي تفتقد علميتها في الرجوع إلى الحقيقية الواقعية الخارجة الموجودة في العالم الطبيعي... ولكن تثير هذه الطريقة الكثير من المشاكل الفلسفية لأن اللجوء إلى مرجع خارج عن الكلام لتعريف المفردات المكوِّنة له يؤدي في وقت آخر الى الاعتقاد الساذج بأن الكلمة هي الشيء الذي تدلّ عليه. وعلى هذا الاعتقاد يترتّب الاستعمال المتكاثر للوثائق المصوّرة في بعض المعاجم اللغوية كأنما أحسن التعريف لشيء من أشياء الطبيعة هو إظهار الشيء نفسه أو صورته.

ويجب هنا ان نفهم فهمًا قاطعا ان الصورة التي تجيء في هامش المعجم لتفسّر بشكل واقعي، موضوعي، معنى كلمة «كلب» مثلا، لا تتطابق بأي حالٍ من الأحوال مع الحقيقة العلمية لأن الصورة هي صورة كلب معيّن من جنس معيّن بلون معيّن وطول معيّن. . أمّا التفسير اللغوي للكلمة فقد جرّد مفهوم «كلب» من كل خصائصه المعيّنة. ما أريد ان أقوله عندما أتحدث عن الاستناد الى العالم الطبيعي لتعريف بعض المفردات هو أن هذا العالم ليس العالم في طبيعته لأننا لا نستطيع ان ناخذه قطعة قطعة ونُدخله الى معجماتنا، بل هو العالم كما تحقّقه اللغة وتوسطه. ليست الكلمة الشيء الذي تدل عليه بل إنما هي صياغة أخرى لواقعه الذي نتكلم عنه او الذي ننطلق منه عند بحثنا عن المعاني الدّالة على الأشياء.

نتذكر كلّنا كُوليفير الذي وصف ما شاهده في جزيرة من الجزر العجيبة التي زارها. فرأى مرة عددا من العلماء وقد غرقوا في نقاش حادّ وأخرجوا كلماتهم- الأشياء من الحقائب التي أتوا بها والتي كانت مملوءة بأشياء مختلفة اعتقادا منهم ان اظهار «الحجر» مثلا هو أحسن طريقة للتحدث عنه. قد يكون الحجر احسن وسيلة لاقناع الآخرين ببعض الحقائق ولكن لكل مقام مقال. . .

على عكس هذا الاعتقاد الذي يجعل بعض الناس يستمد مراجعه من حقيبة الطبيعة (أو حقيقتها) كأنها قَبْلِيات كل خطاب، نجد موقفا فلسفيا آخر يؤدي بالمعجمي العادي إلى اللجوء الى المراجع التي يُوفرها العالم الذي يخلقه الكلام ويبنيه. فلنأخذ مثلا، كلمة «حجر» حتى نتحقق من هذه الطريقة.

حجر: جسْم طبيعي صلب يُستعمل في البناء

أمّا جسْم: كل ما له طول وعرض وعمق

تركيب هذا التعريف يختلف اختلافا تاما عن التعاريف التي قرأناها من قبل لأنه يُحلّ محلّ الكلمة - الأساس حَجَرٌ وهي ذات معنى

خاص، كلمة أخرى ذات معنى أعمّ. هنا ننتقل من معنى «الحجر» الخاص الى معنى «الجسم» العام كما يدل عليه التعريف الذي أتينا به: «كل ما له طول وعرض وعمق».

بعد ذلك يتراجع التعريف فيُخصص المعنى الأخير مرتبا علاماته المميزة الداخلية ومقيدا صفاته بالاستناد الى الواقع الخارجي. عندنا، في التعريف، وصف لهذا «الجسم الحجري» وهو «جامد، طبيعي صلب» فهذه الصفات: الجماد، الطبيعية، والصلابة كلها مستمدة من باطنية المفهوم. أما «استعمال هذا الجسم في البناء» فهو قيد تعريفي في الوصف، ناتج عن حضور الصفات المعنيّة داخل هذا النوع من الاجسام. من الافضل حقّا ان يبني الانسان منزله بمادّة متينة. ولكن قد كان من الامكن ان يختار المحرر قيدا تعريفيا آخر أو يزيده للاول ويقول: «يستعمل في البناء وفي القتال ايضا».

فالاستشهاد بطبيعية الحجر في حالة استعماله كسلاح من الاسلحة يؤدي بنا إلى آفاق أخرى لمعنى التعريف لّمحت اليها في بداية هذا الحديث ولقد رجعنا بمثلنا هذا الى مستوى معني المعنى وقد يكون بإمكاننا اتخاذه موضوعا للبحث في اطار أعمال مؤتمر آخر.

دانيال ريغ
جامعة باريس